هدية إلى الأخ الكريم زياد حسين بك
مع تحيات واحترام
محمد البيطار
٢/ رمضان عام ١٣٨٧ هـ

مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق

هدية
مجمع اللغة العربية بدمشق

أخلاق الوزيرين

« مثالب الوزيرين الصاحب ابن عباد وابن العميد »

تأليف

أبي حيان علي بن محمد التوحيدي

حققه وعلق حواشيه

محمد بن تاويت الطنجي

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب

أخلاق الصاحب وابن العميد

ترجع صلتي بهذا الكتاب إلى أوائل شهر ديسمبر من سنة ١٩٥٣ م ، فقد زرت صديقي الكريم السيد عزيز بَرْكَر المدير العام إذ ذاك للمكتبات بتركيا ، ورَجوته أن يُطلِعني على فهرس مكتبة « أسعَد أفندي » باستانبول ، لأخرج منه رقماً لكتاب كنتُ بحاجة إلى إحضاره من استانبول إلى أنقرة للاطلاع عليه .

وبقي الفهرسُ بعد ذلك في يدي أتصفّحه ، ولفَتني عنوان كتاب في أول المجموعة رقم ٣٥٤٢ ، كُتب هكذا « الصداقة أو الصديق » وكُتب اسم المؤلف تحته هكذا : « أبو حيات الأندلس » ، ثم يليه عنوان بهذه الصورة : « في العلوم » « كذا » إشارة إلى الكتاب أيضاً للمؤلف نفسه .

وعلى الرغم من هذا التصحيف الواضح ، فقد كان ظني قوياً بأنني أمام نسخةٍ خطية من « الصداقة والصديق » ، ومن « رسالة العلوم » لأبي حيان التوحيدي .

وسَرّني ذلك ، وتذكّرت أن مرغوليوث D. S. Margolioth الذي كتب مادة « أبي حيان » في دائرة المعارف الاسلامية ، كان قد أشار إلى أن كتاب « مثالب الوزيرين » يوجد في القسطنطينية ، لأن مطبعة الجوائب — حين نشرت الصداقة والصديق ورسالة العلوم » — وعدت بنشره .

وقوي أملي في أن يكون كتاب « المثالب » ضمن المجموعة المذكورة ، على الرغم من عدم كتابة اسمه بين محتوياتها ، حيث اني لم أعثر بعد بحث متواصل طويل على أي أثر لنسخةٍ خطية للصداقة والصديق .

وطلبت المخطوط أيضاً إلى أنقرة ، وجاءني يوم ١٩٥٣/١٢/١٩ م ، وكان يحتوي على كتاب « الأخلاق » .

ومع أني لا أجرؤ أن أسمي هذا اكتشافاً ، فإنني أستطيع أن أقول : إن أحداً — بعد وعدِ مطبعة الجوائب ، وقبل التاريخ الذي ذكرتُ أن المخطوط وصلني فيه إلى أنقرة — لم يكن يَعرف عن كتاب أبي حيان هذا شيئاً .

ومضت الأيام ، وكتب صديقي الدكتور عزة حسن إلى المجمع العلمي العربي يُخبره بذلك ، وجاء جوابُ المجمع بإمضاء رئيسه إذ ذاك ، فقيدِ العلم والخُلُق ، المغفور له خليل مردم بك ، تحت رقم ٦٧ ، وبتاريخ ١٣ نيسان (ابريل) سنة ١٩٥٧ م ، يرحّب فيه بطبع الكتاب بالمجمع العلمي العربي .

المقـــدمة

اسم الكتاب :

وعنوان الكتاب في الأصل المخطوط هو : « أخلاق الصاحب وابن العميد » .

وهو الاسم الذي أُقدّر أن أبا حيّان وضَعه عنواناً لـكتابه هـذا ، ولذلك آثرتُ أن أُبقيَ عليه ، وعَدَلت عن تسميته بمثل « مثالب الوزيرين » كما سَمّاه به غيرُ أبي حيّان بعدَ وفاته بنحو مائتي عام .

ووجدتُ في كلام أبي حيّان ما أحسَب أنه يؤيّد هذا الصَّنيع الذي آثرته ؛ ففي حَديثٍ له مع الوزير ابن سَعْدان (المقتول سنة ٣٧٥ هـ) يقول : « .... على أني عمِلتُ رسالة في أخلاقه (يعني الصاحب) وأخـلاق ابن العميد [1] » .

وفي سؤاله لأبي سَعيـد الأبهري (المتوفى سنة ٣٧٥ هـ) يقول أيضاً : « بيّن لي أمرَ هذا الرّجُل (يعني الصاحب) ؛ ففي نفسي أن أعمَلَ كتـاباً في أخلاقه [2] » .

---

(١) الامتاع والمؤانسة ١/٥٤ .

(٢) أخلاق الصاحب وابن العميد ٣١٨ .

لقد اختار أبو حيّان للتّعبير عن مضمون هذه الرسالة كلمةَ « أخلاق » ؛ والسبب الذي دعاه أن يَسلُك مسلكَ الحذَر والاحتياط ، ويختارَ هـذا العُنوان لرسالته دونَ غيره ، في مجالسِه الخـاصّة — حيث يُناجي أولئك الذين يَطمئنّ إليهم ويأتمِنُهم على أحاديثه — لا يزال قائمـاً ، وبصفةٍ أخطَر وأدعى للاحتياط والخوف ، عندما يُذيع كتابَه ويَعرِضه على الجماهير ، وفيهم العدوّ المتربّص ، والحَسود الذي لا يَرحَم .

وكلمة « أخلاق » — بعدُ — هي التي تَتّسع للخطة التي رَسَم حُدودَهـا في مقدمة كتابه هـذا ؛ فلم يقتصِر في أحاديثه عن الوزيرين ، وهذه عبارته : « على ما كان طالباً لمقتهما ، وداعياً إلى الزّراية عليهما ، وباعثاً على سُوء القول والاعتقاد فيهما » [1] ، بل أضاف إلى هـذه الأحاديث — وهذا قولُه أيضاً : « ما شاع من فَضائل لم يَثلِمُهما فيها أحَدٌ في زمانهما ولا كثيرٌ ممّن تَقدّمهما [1] » .

ومن هنا جاء حديثه عن الـكرَم واللؤم في أخلاقهما ، والنقص والزيادة ، والوَرَع والانسِلاخ ، والرَّزانة والسُّخف ، والـكَيْس والبلَه ، والشجاعَة والجُبن ، والوفاء والغَدر ، والسّياسة والإهمال ، والاستعفاف والنَّطَف ، والدهـاء والغَفلة ، والبيان والعيّ ، والرَّشاد والغَيّ ، والخطأ والصّواب ، والحِلم والسفَه ، والخَـلاعَة والتماسُك ، والحياء والقِحَة ، والرحمة والقَسْوة [2] .

وسواء وفّى أبو حيّان بخطته هـذه أو لم يفعَل ، فإنه يُريد ، في إصرارٍ ،

---

(١) الأخلاق ١٣ ، وانظر الإمتاع ١/٥٤ .

(٢) الأخلاق ٩ — ١٠ .

أن يظهر بمظهر الوفيّ لها ، وأن عمَله في هذا الكتاب سار على هذا النهج .

وأبو حيّان بعدَ هذا لم يكن من الجرأة ومناعة الجانب — وإن أعجَبه ، حين يكون بنجوة من الخطر ، أن يتظاهر بمظهر الشجاع الذي لا يقيم لخصمه أيّ وزن — بحيث يتحدى الوزيرين وأشياعَهما ، فيسمي كتابه « مثالب » أو « ثالب » أو « ذم الوزيرين » كما حلا للناس أن يسموه فيما بعد ، بل إنه — بعد أن اختار لكتابه هذا العنوان الذي يَسع المجال فيه للثناء بالخير وبالشر معاً — بلَغ من جزَعه أن أخفاه عن الأعين [1] ، واحتفظ به في مسودته عنده ، واعتذر للوزير ابن سعدان — حين طلبَه منه — بأنه لا جَسارة له على تحريره ، وبأن جانب الصاحب مَهيب ، ومكره له دَيب ، وتمثّل له بقول الأول :

إلى أن يغيبَ المرء يُرجى ويتّقى ولا يعلم الإنسان ما في المغيَّبِ [2]

وحينَ استسلم لوعيد أبي الوفاء البُوزجَاني ، وقدّم له كتابه « الإمتاع » ، وفيه ، كما يقول أبو حيّان : « ما يشيط الدّم المحقُون ، ويُنزَع من أجله الروح العزيز ، ويُستَصْغَر معه الصَّلب ، ولا يُقنع فيه بالعذاب الأدنى دون العذاب الأكبر » [3] ، كان أيضاً خائفاً يترقّبُ ما لعلّه أن يلحَقه من أذىً لو اطلع الناس على ما في كتابه .

ولهذا جهد ، ما وسِعته الحيلة ، في تبرير أقواله وأحكامه على الوزيرين وغيرهما في كتابه ؛ فالتَوْى في نقده ، واحتجّ له بأن أناساً قبله هَجَوْا وثَلَبوا

(١) الأخلاق ٥٠/٥٤/٥٥ .
(٢) الإمتاع ١/٥٤ .
(٣) الإمتاع ١/١٣ .

من استَحَقّ أن يُهجى وأن يثلب ، ولم يُنكِر صنيعَهم أحد [1] ؛ واستنجد بالمقاييس الدينية والخُلقية ، فأمدّته بأن لا غيبة للبَخيل والمنافق ، بل يجب ذكرُ مَساوئهما ونقائصهما تحذيراً منها [2] ، فجادل بها عن تصرفاته وأحكامه ، ونصَر بها أقوالَه .

ووقف وراء أقوام يَروي عنهم ما يُعبّر عن رأيه في الناس أو يُسنده تارةً ، وقال ، حيث غلَبته طبيعتُه ، وضاقت عليه السُّبل لالتماس العُذر . إن الشرَّ بالشر والبادي أظلم [3] تارةً أخرى .

وهو صنيعٌ — مهما كانت الوسيلة التي استعملها أبو حيان للتعبير عنه — يكشِف عن خَوفه ، ويوضّح هُروبَه من تحمّل التّبعات التي تجرُّها عليه أقواله وآراؤه في كتبه .

إلى هُنا ، وَجْهَةُ أبي حيّان في التعبير عن آرائه ، وجَزعُه من أن يطّلع الناس عليها ، وتعبيرُه في حديثه مع ابن سَعْدان وأبي سَعيد الأبهَرى عن مضمون كتابه بكلمة « أخلاق » — كلُّ هذا جميعه شاهدٌ بصحّة العنوان الذي تحمِله المخطوطة ، وبأن أبا حيّان ، وهذا حظُّه من الشجاعة ، لا يجرؤ — فيما ألِفناه — على تسمية كتابِه بمثالب أو ثلب أو ذم الوزيرين .

كان هذا وأبو حَيّان في عِداد الأحياء ، وأمرُ تسمية كتابه في يده ، له وحدَه أن يضَع له أيّ اسمٍ يريده .

(١) الأخلاق ٥٥ - ٧٩ ، ١٥١ - ١٥٩ .
(٢) الأخلاق ٦٨ - ٧١ .
(٣) الأخلاق ٨٦ - ٨٧ ، ٣١١ .

وأما بعد وفاته فالأمر قد اختلف ، وأوّل ما نلاحظه أن صلة العلماء به وبكتبه قد بدأت في عصر مبكّر ؛ فقد نقل أبو العباس الجُرْجانيّ (المتوفى سنة ٤٨٢ هـ) في كتابه « الكِنايات[1] » عن رسالة أبي حيّان الموسومة بنَوادر الفقهاء ، وعن كتابه البصائر والذخائر[2] ، وأشارَ أبو الحسَن البَيْهقي (المتوفى سنة ٥٦٥ هـ) في كتابه تتمة « صِوان الحكمة » إلى كتاب « الهَوامل والشوامل[3] » ، وذكر أبو عبد الله المازَري الصِّقِلّي (المتوفى سنه ٥٣٦ هـ) أنّ لأبي حيّان ديواناً عظيماً في التصوّف[4] ، وكأنه يشير إلى كِتابه « الإشارات الإلاهية » ، ونقل عنه محمد بن هلال بن المحسّن الصابي المعروف بغرس النعمة في كتابه « الهفوات[5] » .

وكل هؤلاء قبلَ ياقوت ، غير أن صلتهم جميعاً بأبي حيان — وياقوت مستثنى — كانت عابرة ، ولم تكن من الوثاقة والدوام وشمول النظرة ، بحيث تُظهِر أبا حيان ذا كيانٍ واضح ، وطابَع يميّزه عن غيره ، وبحيث تذكُرُ مؤلّفاته وتُعَدِّدها فتضطرّ إلى تسميتها .

إن الصلةَ المُسْتَقْصِيَةَ لأحواله بهذه الصُّورة ، تأخر ظهورُها إلى ما بعد وفاته بنحو مائتي عام .

(١) الكنايات (نسخة فيض الله ١٠٤ ـ آ) .
(٢) المنتخب من كتاب الكنايات ٣٧ و ٤٦ و ٩٨ ، ١٠٠ . طبع القاهرة ١٣٢٦ هـ .
(٣) تتمة صوان الحكمة ٢٨ . طبع لاهور سنة ١٩٣٥ م .
(٤) شرح العقيدة الاصفهانية لابن تيمية ١١٧ . طبع القاهرة ١٣٢٩ هـ .
(٥) الإرشاد ٥/٣٨١ .

وربما كان ياقوت الحموي (٥٧٥ — ٦٢٦ هـ)[1] أول من نظر إلى أبي حيان نظرة متأنّية ، اتضَحت له معَها شخصيتُه وعلمُه وأدبه ، فعجِب من إهمال المؤرخين له[2] ، مع ما له من المنزلة الرفيعة التي أطلَعه عليها تقصّيه لأحواله ، وقراءتُه المنظّمة لكتبه .

وكأنّ عنايةَ ياقوت باقتناء الكتب والاطلاع عليها ، على اختلاف مذاهب مؤلّفيها ومَشاربهم ، واشتغالَه بالنسخ ، لغَيره مُقابِلَ أجر[3] ، — قد مكّنه كل ذلك من أن يحصلَ على مجموعة من مؤلفات أبي حيان[4] ، ويستخرجَ له منها ترجمة واسعة ضمنها كتابه « إرشاد الأريب » .

وحينما نقل ياقوت عن كتابنا هذا ، وقد كرّر النقل عنه ، أورده بأسماء مختلفة ؛ ذكره باسم « أخلاق الوزيرين » في أربعة مواضع من الإرشاد[5] ، وباسم كتاب « الوزيرين » في ثمانية مواضع منه[6] ، وباسم « مثالب » في

(١) الوفيات ٢/٢٥٤ .
(٢) الإرشاد ٥/٣٨١ .
(٣) الوفيات ٢/٢٧٨ .
(٤) كان بين يديه منها : كتاب الأخلاق وقد نقل عنه أزيد من أربع عشرة مرة في كتابه الإرشاد . وكتاب محاضرات العلماء (الإرشاد ١/١٥ ، ٢/٣١٤ ، ٣/٨٧ ، ٦/٤٦٦) . وكتاب تقريظ الجاحظ وكان بخط أبي حيان (الإرشاد ١/١٢٤ ، ١٤١ ، ٣/٨٦ ، ٦/٥٨ ، ٩٦) . وكتاب الصداقة والصديق (الإرشاد ٥/٣٨١) . والبصائر والذخائر (الارشاد ١/١٤٨) .
(٥) ٢/٢٧٣ ، ٢٨١ ، ٥/٣٩٢ ، ٤٠٤ .
(٦) ١/٢٨١ ، ٢/٤٤ ، ٩٥ ، ٢٧٣ ، ٥/١٥٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٩٢ .